ادبنا القومي

- ٣ -

بين القديم والجديد

ابتدأ الشعور الصادق بازمة اللغة العربية في مصر من يوم دلفت اليها علوم الغرب الحديثة على يدي محمد علي الكبير . ولقد حدثتك في مقال سابق انه استعان على الترجمة بين اساتذة الطب الغربيين وبين طلبتهم من المصريين او المتمصرين بجماعة من النازحين الى مصر من المغاربة ومن بلاد الشرق القريب ، فكانوا يؤدون الى هؤلاء بالعربية او بما يشبه العربية مايلقيه اولئك باللغات الغربية . فكان هذا اول مجهود بذل في هذا الباب . واذا لم يكن قد انتج كثيراً ، او لم يجر على وجه الدقة فالعذر لهؤلاء السابقين قائم ، وسعيهم مشكور على كل حال .

وظلت الحال على هذا الى ان عاد من الغرب رفاعة وقرناؤه ، واتسعت رقعة العلم الحديث في مصر بما اقيم من المدارس في فنون الحياة المختلفة ، وقويت الحاجة الى التماس صيغ العربية ومفرداتها تؤدي بها علوم العصر الحديث . فلم يتعاظمهم الامر ولم يخذل من عزائمهم ، بل لقد جرّدوا هماً لتزلزل الجبال ولاتتزلزل ، فأقبلوا على معاجم اللغة وجعلوا ينغضون منها كل لفظة تؤدي معنى مما بين ايديهم ، كما أقبلوا على الكتب العربية في العلوم والفنون المختلفة مؤلفة ، ومترجمة عن اليونانية وغيرها ، فاستخرجوا منها شتى المصطلحات الفنية وأطلقوها على ماوقع لهم من المصطلحات في اللغات الاجنبية . فاذا قام لهم بعد هذا جديد من المعاني في لغات الغرب فلم يجدوا له من قديم صيغ العربية مايترجم عنه عاذوا بالتعريب . فعمدوا الى الكلمة الاجنبية فأطلقوها بعد ان يهذبوها بما يسيغها في لسان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العربية . وبعد ان كان الامر في صدر النهضة مقصوراً على الترجمة فقد ثمر العلماء المصريون للتأليف فأخرجوا من الكتب والرسائل مؤلفة ومعربة مالا يحصى كثرة في الطب والهندسة والحساب والفلك والطب البيطري والزراعة والتعدين وغيرها مما زخرت به العربية على الرغم مما كان يشوبه من المعرب والدخيل والركيك . والا فكيف كانت الحيلة في أداء علوم الحياة للمصريين ؟ ما احسب احداً يزعم ان الواجب عليهم كان ان يتربصوا بالعلم حتى يأذن الله فيخرج لهم من خالص العربية مايدل على كل ما كان وما سوف يكون .

ولعل الحرج السياسي في مصر في مؤخرات عهد اسماعيل ، ثم في تهيؤ البلاد للفتنة في عهد توفيق قد خذل من قوائم هذه النهضة « اللغوية العلمية » وان لم يخذل في النهضة الادبية ثم كانت القارعة الكبرى بالاحتلال الانجليزي ، ثم تعمد المسيطرين منهم على التعليم بسط العلوم على التلاميذ باللغة الانجليزية . ولا يذهب عنك ان ادامة هذا السنين الطوال قد كاد يقطع ، ثانياً ، الصلة بين العربية ومصطلحات العلوم الكونية : ولسوء حظ العربية لقد كانت هذه الفترة هي اشد فترات التاريخ ازدحاماً بمخترعات الغرب ومستكشفاته في مرافق الحياة . وما زال يرشقنا كل يوم منها بما لا نجد عنه منصرفاً ولا محيداً ، ولا تجد لفتنا عليه مسعداً ولا معيناً !

على انه من جيل مضى قد تعاظم هذا الخطب جماعة العلماء والمتأدبين فانبعثت له طائفة من ائمة اللغة واعلام البيان واقبلوا على كتب اللغة ينكتونها نكتاً ليصيبوا بها ما يمطرنا به العلم الحديث ، فجدوا اشهراً او اياماً ، ولا ادري ما الذي فرق عزائمهم ، فسرعان ما انقبضوا بعد ان اخرجوا بضع عشرة كلمة سار أقلها ومات سائرها ، ولا حول ولا قوة الا بالله !

على ان جهوداً فردية ظلت مرسلة ، انتج بعضها كثيراً ، وانتج بعضها قليلا . الا انها بكثيرها وقليلها لا تغني في هذا الباب كثيراً !

وعلى ذكر هذه الجهود أحيي بأطيب التحيات وازكاها ذكرى استاذنا الاعظم العالم اللغوي الاديب الشاعر الكاتب حفني بك ناصف عليه رحمة الله . فانني لا أعرف في هذه البلاد من جمع بين خدمة العلم وخدمة الادب وخدمة اللغة ، وخاصة من الجهة العملية مثل حفني ناصف . ويدوم على هذا طوال السنين لا زهو ولا استكبار ، بل انه لتواضع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يشبه الانكسار . وهكذا العلماء لا المتعالمون !

إذن لم يغن كل ما بذل العهد الاخير في مطالب العلم الحديث عند لغة العرب . وكيف الحيلة في هذا الخطب الجسام : ان البلاد تريد ان تتعلم ، وتريد ان تتعلم بلغتها لغة العرب ، وفي الحق انهـا اذا لم ترد هذا فقد خطت بيدها قبراً لا انبعاث لها منه الى غاية الزمان .

وهنـا اذكر لامام الصحفيين المرحوم السيد علي يوسف حكمة له مأثورة : « ان من يعلم الامة بلغتها فانه ينقل العلم اليها . اما من يعلمها بغير لغتها فانه ينقل أفراداً منهـا الى العلم » . ونحن المصريين بحمد الله اشد أنفة واوسع في الحياة مطلباً واعز مطمعاً من ان نقنع بان ينقل افراد منا الى العلم !

وإذن لا بد من حل ، وهذا الحل لا يمكن ان يكون الا باتخاذ احدى طريقتين لاثالث لهما : اما العياذ بالنحت والتعريب وما اليهما من الوسائل الى مط اللغـات حتى تصيب طرائف المعاني . واما الالتجاء الى التعريب بعد صقل الالفاظ الاجنبية وتسويتها حتى تستقيم اللهجة العربية . وذهب قوم من افاضل العلماء الى هذا ، وخالفهم جماعة من أندادهم الى ذاك . ومن ذلك اليوم نشأ في هذه البلاد مايدعى بالقديم والجديد ، ونجم من يدعون أنصار القديم ومن يدعون أنصار التجديد .

نعم ، لقد اتسع بعد هذا معنى القديم ومعنى الجديد اذ اصبح الى تناوله فقه اللغـة . بتناول الادب في نصرفه واساليبه ومطالبه والغاية منه وغير ذلك ، ولهذا شيعة وانصار ، ولهذا شيعة وانصار ، واننا لنعود الى هذا الموضوع بعد اذ نفرغ مما اخذنا فيه من هذا التاريخ لكيلا تختلط الموضوعات و يختل نظم الكلام .

اسلفت عليك ان الخلاف قد انبعث بين من يقولون بالاجتزاء بالنحت والاشتقـاق وما اليهما ، وبين من يذهبون الى التعريب . وقامت المناظرات بين الفريقين ، وعقدت المحافل لشهود الجدل والحوار . فكانت اظهر حجة لهؤلاء ان اللغة العربية قد انقبضت من مئات السنين عن اسباب الحضارة ، ولم تشهد هذه العلوم الحديثة ولا عهد لها بهـذه الوسائل التي يطلع علينا الغرب بها كل حين . فليس من المعقول ان نصيب فيها ما يغني في كل ذلك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن المسلم به اننا في علومنا واسبابنا في الحياة انما نعيش عيالاً على الغرب وعنه نأخذ ، ومنه نستمد وبه نقتدي فلا محيص لنا عن التعريب . على اننا لا نكون مبتدعين اذا نحن عمدنا الى التعريب . فلقد اضطر اليه سلفنا العظام في انضر عصور اللغة العربية وازكى ايامها ، اضطروا اليه في صميم العصر العباسي حين اريدوا على نقل علوم اليونان وآداب الفرس الى لغة الكتاب العزيز ، ولست تشق كتاباً ترجم او أُلف في ذلك العهد في منطق او فلسفة او طب او هندسة او فلك او غيرها ، الا رأيته قد سلك ، في كثير من المواضع ، سبيل التعريب .

وأبلغ من هذا ان العرب في جاهليتهم على غنى لغتهم الهائل وعلى انهم كانوا أجهل خلق الله بالعلوم والفنون ، لم يتحرجوا من ان يقترضوا كثيراً من الالفاظ الفارسية والحبشية وينظموها في صميم العربية .

وكان من أبلغ حجج الآخرين ان التعريب لا يجوز الا للعرب . فهم وحدهم الذين يملكون ان يدخلوا في لغتهم ماشاؤا وان ينفوا عنها ماأرادوا . فكل دخيل بعدهم لا يمكن ان يقال انه من لغة العرب .

على ان السابقين في العصر العباسي وما وليه اذا كانوا قد اضطروا في سبيل الترجمة عن بعض مصطلحات العلوم الى ايراد كلمات اجنبية فما كان ذلك ليدخلها في لغة العرب ، بل انها مازالت تعتبر من لغى اجنبية .

ثم ان العباسيين قد استطاعوا ان يترجموا بالعربية الصحيحة الخالصة علوم اليونان ، وبديه ان وقوع طائفة يسيرة من المصطلحات الأعجمية فيها لا يخرجها عن عربيتها . اما نحن فاذا طرقنا اليوم هذا الباب فسنجد في كل عشر كلمات واحدة عربية وتسعة معربة ، او على الصحيح اعجمية ، اما لانه ليس في لغة العرب مايدل على المعنى الحديث ، واما باستسهال الناس للتعريب عن طول المراجعة والتنقيب ، وفي هذا القضاء كله على لغة الكتاب الكريم .

و يرى هذا الفريق من العلماء ان في ابواب النحت والاشتقاق والمجوز متسعاً لكل ما يعرض لنا من معنى حديث وزادوا على هذا انه اذا تعصت لغة العرب عن اداء معنى طريف بعد ان نفر كل تلك الابواب ، وتنفد الحيل والوسائل ، فواجب ان يلجأ الى مجفوات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اللغة وما لم يعد يستعمل من مفرداتها فيطلق على ذلك المعنى ، وبذلك تؤدي الغرض من جهة ، ونبعث ميت العربية من جهة اخرى .

ثم يحتدم الجدال ، ويستحر الطعن والقتال ثم اذا الزمن يكر ، واذا الليالي تفر ، واذا اللغة في انقباضها ، واذا المعاني الحديثة ما زالت في اضطرادها ، لا نستدركها على رأي انصار القديم ، ولا نلحقها على رأي اصحاب الجديد .

وقبل ان نجوز هذا الموضع يجب ان نشيد بأثرين كريمين كان لهما حظ في انعاش اللغة العربية بقدر محمود . اولهما ، انه لما ولي المغفور له سعد زغلول باشا وزارة المعارف تقدم بتدريس العلوم المختلفة باللغة العربية ، فنشطت العزائم ، وتضافرت الهمم على التماس ما يترجم من صميم العربية عن مطالب تلك العلوم . وكان من مقتضيات هذه النهضة ان أنشئ في وزارة المعارف قلم للترجمة العلمية ، فاخرج في مختلف العلوم كتباً غير يسيرة ، اذا اعوز بعضها الدقة في حسن الاداء ، فلقد كان لها نفعها على كل حال .

والثاني انه لما تقلد المغفور له احمد حشمت باشا هذه الوزارة والى سعي سلفه العظيم ، واقبل على تشجيع تلك النهضة بتقريب علماء اللغة واذكاء هممهم ، وشق طرائق العمل لهم وبادر فألف لجنة دعيت (لجنة الاصلاحات العربية) يتولى رياستها وزير المعارف ، ووكالتها وكيلها ، ودعا الى عضويتها جماعة من خيرة العلماء : اسماعيل حسنين باشا ، احمد زكي باشا ، حفني ناصف بك ، اسماعيل رأفت بك . الشيخ احمد السكندري وغيرهم .

ولولا حب الجدل ، الذي ابتلينا به نحن المصريين ، لآتت هذه اللجنة اجل الثمار ؛ على انها برغم ذلك قد حققت كثيراً من الاعلام والمصطلحات الجغرافية مازال يؤخذ بها في التعليم الى الآن .

ثم فترت هذه الفورة بعد اعتزال حشمت باشا وزارة المعارف وجرى على تلك اللجنة القضاء المحتوم .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« المجمع اللغوي

ادرك اهل العلم ثانياً ان جهود الافراد لا تغني في هذا الحدث كثيراً ، لان الواقع دل على ذلك اولاً ، ولأن عمل الفرد في مثل هذا لا يُكفَل له الضبط والدقة الواجبان ثانياً ، ولان اثر الفرد لا يلتزم به المجموع ثالثاً ، فتكون النتيجة نتيجة الارتكان على الجهود الفردية ان تختلف الدلالات على المعنى الواحد ، سواء في الالفاظ المفردة او في الصيغ المحبوكة .

ومن هنا التفتت النيات الى وجوب عقد مجمع لغوي يضم اليه افذاذ العلماء واللغويين وكبار الادباء من الشعراء والنقدة والكتاب ، حتى يثمر السعي من جهة الدقة والتجويد ، ومن استراحة جمهور المتأدبين اليه واخذهم به في معالجتهم لالوان العلوم والآداب . ووجهت الدعوة الى صفوة هؤلاء فعلا ، ووجهها الاستاذ احمد لطفي السيد بك (مدير دار الكتب يومئذ) فلبوا ، واجتمعوا ثم اجتمعوا ، ثم انفضوا لا عن شيء وتفرقوا كل مفرق .

وبعد بضع سنين شبت هذه النية مرة اخرى فدعا صاحب العطوفة ادريس راغب بك جماعة من صفوة العلماء والادباء الى عقد « مجمع لغوي » ايضاً . فاجتمعوا واشتعبوا لجاناً تتجرد كل واحدة منها لمطلب خاص ، ثم اجتمعوا وانتضج مسعاهم عن اثر يسير ، لا ادري مصيره اليوم ، ثم انفضوا وتمزقوا كل ممزق .

لم يبق بعد كل هذا بد من احالة الامر على الحكومة فالحكومة قوية بمالها ، قوية برجالها ، قوية بقوانينها . ماتأخذها هوادة في بسطها على موظف فاتر كسول وبعبارة أخرى ، لانجاح « لمجمع لغوي » الا اذا تولته الحكومة فاصبح فرعاً (رسمياً) من فروعها . ولهذا مزية اخرى ، وهي ان الحكومة تستطيع ان تفرض ما يخرجه (المجمع اللغوي) فرضاً في كتب التعليم وفي مكاتباتها (الرسمية) وغير ذلك . وفكر في ذلك الاستاذ علي الشمسي باشا منذ كان وزيراً للمعارف ، واحتفل للامر ايما احتفال ، وراجع فيه الاستاذ احمد لطفي السيد بك (مدير الجامعة يومئذ) والاستاذ احمد حافظ عوض بك وثالثاً . وقدم كل منهم الى الوزير تقريره متضمناً المبادئ الاساسية التي ينبغي ان يقوم عليها بناء المجمع والغاية من قيامه ، وطريقة قيامه بمهمته ، على جهة الاجمال لا التفصيل . وجعل الوزير يفكر بعد ذلك ويتدبر ، وفي خلال هذا التفكير وهذا التدبير تخلت الوزارة عن الحكم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقام على وزارة المعارف بعده الاستاذ احمد لطفي السيد بك فوالى مساعاة سلفه ، وجد في الامر ايما جد حتى اتم مشروع انشاء «المجمع اللغوي» ومشروع ميزانيته على ماروى لي الثقة الصادق ، والعهدة عليه ثم لم يظهر لهذا المجمع «الرسمي» الى الآن (حس ولا خبر) . وهكذا ظلت لغة العرب وحاجة العلم يناشد كل منهما صاحبه قول الشاعر :

أرى ماء وبي ظمأ شديد ولكن لا سبيل الى الورود

ولقد انتهى الي ان هناك ملاحظة قوية قد ارتفعت على مشروع انشاء «المجمع اللغوي» ذلك بان اللغة العربية ليست ملكاً لمصر بين وحدهم حتى يستأثروا بالتصرف فيها ، بل هي ارث مشاع بين جميع الامم التي تنطق (الضاد) . وهيهات ان يكفل لهذا المشروع نجاح الا اذا اشترك فيه مندوبون عن سائر الامم العربية الاخر ، ليجري كل ما يستخرجه المجمع وما يولده على السنة المتكلمين بالعربية في جميع اقطار العالم ولقد يكون لهذا الرأي شيء من الاعتبار بتوحيد جميع الصيغ والدلالات في أقطار العالم العربي ، وان كان هذا برغم الف مجمع ومجمع ، مما يكاد يلحق بالمستحيل . ولكن اليست اقامة مجمع لغوي مصري بحت خيراً من ألا يقام مجمع البتة من اي نوع كان ؟ .

ثم لقد سبقنا اخواننا اهل الشام فألفوا « لهم مجمعاً علمياً لغوياً » فهل دعونا او دعوا غيرنا من المنتمين للعربية الى الاشتراك فيه ؟ وهل هم منتظرون حتى تبدي الامم العربية الاخرى رأيها فيما هم مخرجون ؟

والحق الذي لا ريب فيه ان مصر اعلى البلاد العربية حضارة واوفرها غنى ، واوسعها علماً وادبا ، فهي حاملة لواء الحضارة في الامم العربية ، وان غيرها ليقتدي بها . ولو انها نهجت في هذا الباب سبيلها لاتبعها غيرها واخذ عنها سواها من الامم الناطقة بالعربية .

ثم ماذا يضيرنا نحن اذا خالفنا غيرنا ، في الدلالة على المعاني الحديثة ، الى غير ما نستخرجه من المفردات وما نتواضع عليه من المصطلحات ؟

* * *

وبعد فلقد اوردت عليك موجزاً من تاريخ اللغة العربية من صدر النهضة الحديثة ، ومبلغ تقلبها ، وكيفية تصرفها . والجهود التي بذلت في سبيل انبساطها لحاجات العلوم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكونية . ومن هذا كله ترى ألاّ ملجأ ولامنجى الا بالاسراع في عقد مجمع لغوي (رسمي) تكفله الحكومة ، و يشد منه جمهرة العلماء والمتأدبين ..

بين القديم والجديد ايضاً

قلت لك في مقالي الماضي انه قد اتسع معنى القديم ومعنى الجديد ، اذ أصبح الى تناوله فقه اللغة ، يتناوله الادب في تصرفه وأساليبه ومطالبه والغاية منه ، وغيرذلك . والواقع ان الخلاف جد واضح في امر فقه اللغة ، فهناك قوم يقولون بالتعريب فيما لا غناء للعربية فيه وقوم لايسيغونه البتة ، بل يذهبون الى معالجة ذلك بالنحت والاشتقاق وما اليهما على ماسلف به التفصيل . اما الخلاف في شأن الادب بين أنصار القديم وأنصار التجديد ، فالحق انه غير واضح المعالم ولا بين الحدود .

نعم ان هناك اختلافاً كبيراً تحسه وتستشعره بين آثار هؤلاء وآثار هؤلاء وهذا الاختلاف لقد يظهر مرة بقدر كبير وقد يظهر مرة بقدر صغير ، فهو من الجهة العملية قائم على كل حال . اما من الجهة النظرية فان احداً لم يتقدم الي الآن بتبيين حدوده واظهار وجوهه وتفصيل مسائله . وبعبارة أخرى : ان احداً من هؤلاء ولا من هؤلاء عبر في صراحة ونصاحة بيان عما يرى ان يكون عليه الادب العربي في هذا العصر الذي نعيش فيه . فان انت ظفرت بشيء من البيان في هذا ، ظفرت به على وجه الاجمال لا على وجه التفصيل . وعلى ذلك فليس من حقنا نحن المحايدين ان ندخل في تفصيل ما طواه اهله وأجمله ذوو الشأن فيه . بل ان كل ما علينا ان نأخذ في الامر كلامنا من الجهة النظرية بالاجمال . اما من الجهة العملية البادية في آثار اصحاب القديم وانصار التجديد ، فهذه من حقنا ان نخوض فيها على جهة التفصيل :

يعيب اصحاب القديم خصومهم بان آداب الافرنج قد غمرت احساسهم وطغت على مشاعرهم فانحرفت ملكاتهم عن الطبع العربي ، فهم اذا نظموا او أرسلوا البيان وان جلوه في لفظ عربي فانه لايستقيم لطبع اللغة ولا يساير كرائم آدابها وبدائع أساليبها : صيغ حائلة ، وجمل ناصلة ، وتراكيب متزايلة ، وأخيلة ناشزة على الطبع ، وتشبيهات نابية عن السمع . وانزلاق الى معان غريبة لايصلنا بها سبب ، ولا يربطنا بها نسب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهيهات ان يكون الادب كذلك أو يكون ذلك من الادب .

ويجيبهم الآخرون : انكم لاتفقهون الادب ، ولاتدركون اثر الادب ، ولاتعرفون الغاية من الادب ، لان كل همكم وهمتكم قد احتبسا على رص الألفاظ وتزيين الصيغ بالتماس ألوان المحسنات البديعية مهما استهلكتم المعاني في هذا السبيل ، والتجرد في تلقط جملة قديمة او مثل عربي تسوقون ذلك في غير شيء ، وقد تدفعون الكلام اليه دفعاً لتصيبوه وتستكرهوه على نظمه فيما أنتم فيه . فالاصل في الادب عندكم نظم الفاظ وتصيد صيغ وتزويق كلام كائنة ماكانت معانيه ، وواقعة ماوقعت مراميه . اما المعاني واما الاغراض ، واما إفضاء النفس بما يترقرق فيها من الوان الحس ، واما تصوير الجمال وإشعاره الخ فلستم هناك في شيء من ذلكم . وهذا هوالادب لو كنتم تفقهون .

هذه صفوة مانتفض الينا من مناظرات الفريقين (أصحاب القديم وانصار التجديد) اما من الجهة العملية فقد حدثتك في صدر هذا المقال بان الاختلاف بين آثار هؤلاء وآثار هؤلاء لقد يظهر مرة بقدر كبير ، وقد يظهر مرة بقدر صغير والآن ، ونحن بسبيل الابانة عن الخلاف من هذه الجهة ان نعمد الى أطول أقطاره وأوسع مراميه لنظهر القارئ على أوضح صوره وأبين مجاليه :

فلان عندنا وفلان وفلان يقرضون الشعر فلا يكادون يأتون به الا بالغريب الشامس من مفردات اللغة لا يجد الخاصة انفسهم السبيل الى فهمه الا بمراجعة المعاجم .. فاذا سافروا (في اشعارهم) فطريقهم المواصي (الصحاري) وما يترقرق فيها من السراب ، وما يتراءى لهم من الآل ؛ يقطعونها على متون العيس ، وكيف وردت خمساً (بكسر الخاء) او سدساً (بكسر السين) وكيف صنع ذيلها؟ اوضعته عارضة؟ (فتقول ارخى فوقها ستر) ام رفعته شامذة (فتقول رنق فوقها نسر) وكيف حنت النجائب وكيف انت ، ولم تبلغ راكبها طلبتهم الا بعد ان :

اكل الوجيف لحومها ولحومهم فأتوه انقاضاً على انقاض

فاذا بكوا بكوا الأطلال والاحجار من دوارس الآثار . واذا تعشقوا تعشقوا (بنت معلنق الفوارس في الوغى) واذا واعدوا الحبيبة اللقاء ففي (منعرج اللوى) واذا فاخروا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالكرم ، فبخر الجزور لسنامه (شحم كهداب الدمقس المفتل) واذا كثروا بالشجاعة فاداتهم للطعان (السيف اليماني ، والرمح السمهري ، والقنا الخطي) الخ الخ الخ .

اما المتطرفون من اصدقاء الحديث فعندهم (الموت اللازوردي) و (الهيولى الراقدة على سرير الابدية) و (العذاب الناعم) و (باللجحيم) و(باللشيطان) و (الشيطان المرتبك في نسيج عنكبونه) الخ مما لا أريد الاطالة فيه إشفاقاً على ذوق القارئ الكريم .

هذان مثلان ضربتهما اولهما شديد التطرف في التعصب للقديم . وثانيهما شديد التطرف في عدم المبالاة باللغة في سبيل اصابة معنى حديث .

ولا يذهب عنك انه يقع بين هذين الحدين مراتب متعددة ، حتى انك لا تكاد تحس في بعض الآثار فروقاً بين اصحاب القديم وانصار التجديد . ولا تنس ان العلة فيما ترى من هذا التبلبل او شبه التبلبل في الاساليب هي ماشرحته لك في المقال الثاني فراجعه ان شئت وجوه التعليل .

وبعد ففيم الخلاف في الرأي ، وفيم كل هذا الجدل والحوار ؟ لقد يفهم ان يقوم الخلاف جدياً في متن اللغة بين من يقولون بالتعريب ، ومن يحظرون التعريب . وهذه مسألة يجب ترك البت فيها لمجمع لغوي معقود له ثقة العلماء وأئمة اهل البيان . اما الادب وأساليبه وسائر اسبابه فالخلاف عليه لا يزول بالمناظرة ولا بالاقناع ، وانما ينقاص و يزول بحكم الزمان ، وانه الى هذه الغاية لفي بعض الطريق .

لا أحسب ان هناك شكاً عند اصحاب القديم او دعاة التجديد في ان الأدب في كل لغة وعند كل أمة كائن حي يجري عليه من نواميس الطبيعة مايجري على سائر هذه الكائنات فهو ينمو ويهزل ، وهو يطول و يقصر ، وهو يشتد و يضعف ، وهو ينبسط و ينقبض ، وهو يجود و يخبث ، وهو يتشكل و يتلون . يتأثر في كل هذا بما يدخل عليه من العوامل وما يحيط به من الاسباب والملابسات .

ثم اذا كانت ابلغ مظاهر الادب هي الترجمة عما يعتلج في النفس من العواطف ، و يتنزى فيها من الوان الاحساس ، وما يتعلق به الذهن من فنون الاخيلة ، فلا بد للأدب على هذا من ان يتلون ، ولا بد له ان يتطور .

واعلم وفقنا الله جميعاً للسداد ان اهل العلم اجمعوا على انه مامن صورة يبتدعها الذهن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

او خيال يتراءى للوهم الا وهو منتزع من امر واقع مستمد من حقيقة ثابتة . وانك مهما تمثلت لنفسك من الصور ما تجاوز المعقول ، وطيرت من الأخيلة ما يلحق بالمستحيل ، فلست بمستطيع ان تجاوز في شيء من ذلك الواقع ، ولا ان تخرج عن دائرة المحسوس ، وانما كل شأنك فيما تتصور او تتخيل انك ملفق صورك وأخيلتك من الواقع المحسوس ، انك تستطيع ان تتصور جبلاً من اللؤلؤ وبحراً من الزئبق وانساناً من الخشب وطائراً من الذهب ، فهل تراك في هذا جئت بشيء من العدم ، كلا فالجبل موجود واللؤلؤ موجود والبحر موجود والزئبق موجود الخ ، فكل ما صنعت انك لفقت من الحقائق الواقعة لحسك فأخذت من الجبل جرمه ، واستعرت اللؤلؤ لجوهره وهكذا ، وكيف يتهيأ لذهن انسان ان يتمثل اشياء لم تقدر في الخلق ولم يقع عليها حس ؟ ذلك المستحيل .

ولقد ترجم العرب عن احساسهم اصدق الترجمة ، وصوروا عواطفهم ابدع تصوير ، فوصفوا البيد لانها مساكنهم ، والنوق لانها مطاياهم ومادتهم في طعامهم ، وأن لهم (من اصوافها واوبارها واشعارها اثاثاً ومتاعاً الى حين) وافننوا في وصف السيف والرمح لانهما عدتهم في حروبهم ومغازيهم الخ ..

والناس هنا انما يسكنون الدور ، بله القصور . ويسعون في شوارع فؤاد الاول وقصر النيل (والكرنيش) لا في سقط اللوى ، ويمتطون في سفرهم وتجوالهم قطر السكك الحديد ، والترام ، والسيارات ، والمركبات ، لا متون العيس ، وعيونهم تقع كل يوم على ما تخرج الارض من مختلف الازهار والانوار ، لا على القحل ، ولا على الجدب المحل ، وهم يستصبحون بالكهرباء لا بالزيت الخ ، وهم من هذا الذي يقع لحواسهم فوق ما شاع في نفوسهم من علوم الكون واسبابه ، انما يستلهمون الحس ويستوحون الشعور . ولا سبيل لهم الى غير ذلك . فمن أرادهم بعد هذا على ان يغمضوا جفونهم ، ويسدوا آذانهم ويحقنوا انوفهم ، ويبعثوا بمشاعرهم الباطنة وعواطفهم الكامنة ، الى جزيرة العرب تسلخ اليها الف عام مضت لتشهد ما شهد العرب ، وتحس ما أحس العرب ، وتقول ما قال العرب — فذلك من لا يحق له ان يعد في الناس .

ثم مالنا ولكل هذا ، ألم تكن للجاهلية آدابها ، حتى اذا فتح الاسلام للعرب ، واتصلوا بطرف من الحضارة في العصر الأموي تطور هذا الادب وتلون مسايرة لكل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صور الحياة ، حتى اذا استحصدت الحضارة وذاع العلم في العصر العباسي ازداد تطور الادب فواتى كل مطالب العلم والحضارة . وهكذا مابرح الادب يتشكل و يتلون في كل عصر وفي كل بيئة متأثراً بما يتداخله من العوامل وما يحيط به من الاسباب .

والشيء بالشيء يذكر ، فلقد قيل لابن الرومي كيف يسبقك هذا الغلام من بني العباس ؟ (يريدون عبد الله بن المعتز) فقال هذا غلام اذا شعر فانما يصف آنية بيته وصدق ابن الرومي ، ودعك من تشبيهات ابن المعتز في السحاب ، وفي الهلال والنجوم وفي الخمر وفي خيل الطراد ؛ وانظر كيف يقول حتى في مقام الاستعطاف والمديح . قال يصف قلم ابي القاسم :

قلم ما أراه ام فلك يجري بما شاء قاسم و يسير
خاشع ساجد يقبل قرطا ساً كما قبل البساط شكور
مرسل لاتراه يحبسه الشك اذا ما جرى ولا التفكير
كم منايا و كم عطايا و كم عيـ ـش وحتف تضم تلك السطور

أرأيت كيف يكون كلام الملك بن الملك حتى في مقام المديح والاستعطاف ؟ انه لايرى القلم يجري الا بما شاء مرسله وانه لايثنيه في انحنائه على القرطاس الا بمن يراهم في حضرة ابيه وحضرته خاشعين ساجدين يقبلون البساط شكراً على ما أُوتوا من النعمة . ثم لا يرى هذا القلم الا يجري دائماً بالاسعاد والاشقاء و بالاحياء والافناء .

نظن ان هذه القضية من المسلمات عند اصحاب القديم وانصار الجديد .

وهنالك قضية أُخرى لااحسبها كذلك موضع خلاف بين هذين الفريقين : وتلك ان هذا الادب الذي نتحاور فيه انما هو قبل كل شيء ادب العرب . ولهذا الادب اصله وعنصره ، وله مادته وجوهره ، وله بدائع تراكيبه ، وروائع أساليبه ، وله نصاعة ديباجته واشراق بيانه ، وله تلاحم نسجه ورصانة بنيانه ، وله موسيقاه تنحدر الى النفس فتحفزها من عجب ، وتثيرها من شجى وطرب ، حتى انك لتصيب الجمال كله في تنسيق اللفظ ، وتستشعر اللذة اجمعها في تجويد النسج دون اي اعتبار لمعنى او تعلق بخيال .

أليس يهزك قول البحتري :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقفة بالعقيق نطرح ثقلا من دموع بوقفة بالعقيق

وقوله :

ذاك وادي الاراك فاحبس قليلا مقصراً في ملامة او مطيلا
لم يكن يومنا طويلاً بنعما ن ولكن كان البكاء طويلا

أليس يهزك هذا الكلام ، يتزاحف الى كبدك ؟ ومع هذا اي معنى فيه ؟ واي غرض أراد ان يشكه الشاعر به ؟ اللهم لا شيء غير شرف اللفظ ، وتلاحم النسج ، والبراعة في تأليف الكلام فاذا خرج بنا طلب المعاني الطريفة والتشبيهات الحديثة عن ارضاء الذوق وانحرف بنا عن مواتاة الطبع فقد حق لنا الا ننتظم ذلك الكلام في الادب العربي لا على التفصيل ولا على الاجمال .

* * *

هاتان قضيتان ليس الجمع بينهما بالمعنى ولا بالعسير . فلقد زعمت لك في بعض هذا المقال ان الادب كائن حي يجري عليه من سنن الكون مايجري على سائر الاحياء . فاذا لم تر له الا ان يظل رابضاً في مجثمه من عصر طرفة وزهير فذلك تعسف ايما تعسف ، وانكار لحقوق الحس وواقع الشعور أيما انكار . واذا قدرت له ان يسلخ جلده ، ويجدع انفه و يصلم أذنيه و يفري لحمه و يبري عظمه . ثم يتزايل و يتمايع حتى يستوي للمعاني الحديثة ، و يتهيأ لمطالب الحياة الطريفة ، فذلك العسف بأدب العربية وذلك الخسف من دونه كل خسف .

اذن لقد اتفقنا في تقديري على الاقل على انه لا سبيل لنا الى استمداد مشاعرنا واحساسنا من غير ما يحيط بنا من الاسباب كما انه لا ينبغي لنا أن تجانف لغة العرب وما ازلوا لنا من بارع الصيغ ورائع الاساليب .

فهل ترى يشق علينا الجمع بين هذين المذهبين ؟

كلا والله ما كان ذلك — لو بسطتم لغة العرب في البلاد — بعسير .

ولقد سبقكم القرآن الكريم بالترجمة عن السنة الامم الخالية ، فسوى المعنى بالضرورة ، كاملاً . ولكنه طبعه على ذوق العربية فروي عن ابليس في نشأة آدم (رب فانظرني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى يوم الوقت المعلوم) وروسيه عن نوح (رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين) وروي عن شعيب وآل شعيب (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزيز . قال ياقومي ارهطي اعزُّ عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا — الآية الكريمة) وروي عن فرعون موسى يتحدث الى وزيره : (ياهامان ابن لي صرحاً لعلي ابلغ الاسباب . اسباب السموات فاطلع الى إله موسى واني لاظنه كاذباً — الآية الكريمة) وغيرهذا مما لا يستدركه الاحصاء من ترجمات الكتاب العزيز . افكان هذا كله ترجمة حرفية يدل فيها لفظ بلفظ ؟ ام ان الكتاب الكريم صاغها بما يتضمن المعنى كله و يتوافى في الوقت نفسه للهجة العرب .

صدق الله العظيم

وفي الواقع انك ترى فينا نفراً ممن اخذوا انفسهم بادب الغرب وطبعوا على ثقافته ، اذا ترجموا او اجتمعوا لاداء معنى حديث اخرجوه على سمت عربي لا ينبو عن الطبع ولا ينشز عن الذوق . وانما اعانهم على هذا فقههم في العربية ووفرة ماحصلوا من مفرداتها وكثرة ما قلبوا من النظر في صيغها واساليبها .

* * *

ولقد قلت لك في بعض هذا الكلام ان الادب كائن حي يجري عليه من نواميس الطبيعة ما يجري على سائر الاحياء اليس يندفع الوليد من رحم امه دقيقاً ضعيفاً لا يملك من امر نفسه كثيراً ولا قليلاً ، فما يبرح ، على الزمن ، بالغذاء والتربية والرياضة ينمو و يتفطن وتدرك جوارحه وتنضج حواسه حتى يصبح رجلاً كاملاً ، اذ هو هو مابدل بداً بيد ، ولا رأساً برأس ، ولكنه صنع الطبيعة تربيه وتنميه رويداً رويداً بما يدخل عليه من الغذاء ، وما يؤثر فيه من عناصر الحياة ، وانت ابوه ما تكاد تستشعر نموه ولا شبوبه للرجولة . وقل مثل هذا في الشجرة الباسقة المظلة المثمرة ، فلقد تخرج نجماً ، ثم لا تزال بموالاة السقي وحسن التعهد تنمو وتطول ، اذ انت لا تحس لها شيئاً من هذا حتى تنبسق وتزهر ، ومع هذا فالشجرة هي الشجرة ما غيرت ساقاً بساق ، ولا بدلت غصناً بغصن .

وكذلك ينبغي ان يكون الادب ، هو الادب العربي في اصله ومنجمه ، يتلون بتلون الزمن ، ويتشكل بتشكل الحضارة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والحضارة لا تهجم هجوماً ، بل انها لتتسرب الى الناس في هوادة ولين ، فيسايرها الادب كذلك في هوادة ولين ، بحيث ان كل ما تنتظر له به من معان حديثة ، واغراض طريفة ، يمد له بعض جوانبه حتى يتناولها و يسيغها و يهتضمها او يجري بها في عروقه مجرى دمه حتى تندمج في نفسه وتصبح جزءاً من كله ، فيخرج بها وهو هو رابياً ناميا ، اذ تصبح هي به كذلك عربية لا شية فيها وعلى ذلك درجت العرب من اول جاهليتهم الى ان انقبضت لغتهم واوشك ان ينقلص ظلها بنقلص حضارتهم في هذا العالم .

لقد وضحت لك هذا المقام ابين توضيح ، وليس بعده من شك في ان من يريدنا على ان لا نعدو حدود الادب في الجاهلية أو ما بعد الجاهلية انما هو مخلوق لا يؤمن بالحياة ولا بنواميس الحياة . وان من يريدنا على ان نطفر بالادب العربي انما هو انسان لا يؤمن بادب العرب .

باحث

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net